الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام
مظاهرها وأنواعها
دراسة موضوعية فنية

أ. م. د. محمد فتاح عبيد الجباوي
قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة الأنبار

إضاءة :

ليس بدعاً القول بأن الشعر كان قد حظي باهتمام العرب حتى نظر إليه بعضهم على أنه: ((علمُ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصح منه))[1]، فاستثمروا إمكاناته في سلمهم وحربهم ، وعدُّوه الفن الأقرب إلى نفوسهم ، فأقاموا من أجل إبراز أهميته في حياتهم أسواقَهم الأدبية ، ومنتدياتِهم التي كانوا يلتقون فيها ، ولم يقتصر اهتمامهم به من خلال اعتماده مادةً أساسية يتبارون بها بوصفها تمثل قيمةً جماليةً وفكريةً حسبُ ، إنما اعتمدوه أيضاً مادةً رئيسة لرسائلهم التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم في عصر ما قبل الإسلام ، وهي في واقع حالها آنذاك لم تتجاوز مفهوم الرسالة الحربية بأُطُرها المعروفة من إنذار وتحذير ، وهجاء وتقريع، ومدح وافتخار ، وتوثيب وتهديد ؛ وبدهيٌّ أن تتحكم الظروف التي كانت تُلِمُّ بحياة الشعراء بطبيعة رسائلهم ، فالسجين أو الأسير غير الطليق ، والموتور غير المحروب ، والمظلوم غير الظالم ؛ وعلى ذلك فالرسائل الشعرية لا بد أن تتأثر بمعطيات هذه المفاهيم فتنعكس آثارها عليها على نحوٍ يمنحها سَمْتَها الخاص بها ، فرسالة المديح عندما تصدح بها حنجرة في فضاء الحرية تختلف عن مثيلتها التي هي وليدة الخوف حيث الدهاليزُ وقمعُ السجّان ، فلكلٍّ سَمْتٌ يميزُه من غيرِهِ ؛ فسلامةُ بن جندل حين ينطلق لسانه بالحمد والثناء بحق مَن بتَّ القِدَّ الذي كان يرسُفُ فيه أخوه إنما استمدّ مكونات مديحه من امتداد فضاءات الحرية التي أصبح يحلق بها أخوه بعد عذابات الأسر :

سَأَجزيكَ بِالقِدِّ الَّذي قَد فَكَكتَهُ ... سَأَجزيكَ ما أَبلَيتَنا العامَ صَعصَعا
فَإِن يَكُ مَحمودٌ أَباكَ فَإِنَّنا ... وَجَدناكَ مَنسوباً إِلى الخَيرِ أَروَعا[2]

وخلاف ذلك ما يطالعنا به عدي بن زيد العبادي ، إذ جاءت رسالته حزينةً يائسةً تبكي حرية صاحبها التي لم تمتد إلا بقدر امتداد قيده الذي يطوق معصميه :

أَبلِغ أُبَيّاً عَلى نَأيِهِ ... وَهَل يَنفَعُ المَرءَ ما قَد عَلِم
بِأَنَّ أَخاكَ شَقيقَ الفُؤا ... دِ كُنتَ بِهِ وَاثِقاً ما سَلِم

(١) طبقات فحول الشعراء : ٢٤/١ .

(٢) ديوان سلامة بن جندل : ٢٠٤ .

لَـــدى مَلِـــكٍ موثَّـــقٌ في الحَديـــــ د إمّـــــا بحَـــــقٍ وَإمّـــــا ظُلِـــــم[٣]

ورسائل الشعر الجاهلية لم تكن لتخرج من رحمٍ آخر غير رحِم الحرب ، أو من جذوةٍ ليست من جـذواتها ، أو ركامٍ نجم عن غير أوتونها ، فالعصر عصرٌ فروسيٌّ والحرب إحدى أبرز معطياته .

مظاهر الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام

ما إن تهاوت أسوار العصر الجاهلي وترسخّت قواعد الإسـلام ولا سـيما في العقـود الأربعـة الأولى مـن القـرن الأول الهجري حتى طالعتْنا رسائلُ شعريةٌ متنوعة كانت قد أطلَّت حينذاك من خلال مظهرين رئيسين هما :

١. رسائل قوامها الشعر الخالص :

إنّ التطورات التي شهدها المسلمون في عصر صدر الإسلام أحوجتْهم إلى أن يعتمدوا الرسائل الشعرية وسيلةً في التخاطب بين مَن فرَّقتْهم السبل وباعدتْ بينهم الأحداث ، فالفتوح والفتنة ، ووقعة صفين اقتضت أن يكـون الشـعر وشيجة التواصل بين المتراسلين ؛ ويبدو أنّ تأثرَ الشعراء المسلمين بمَن سبقهم من شعراء الجاهلية هو الذي ألـزمهم بطريقتهم في صنعة الرسالة ، فهم على وعي تام بماهية رسالة قيس بن مسعود الشيباني ، ورسالة لقيط الإيـادي ، ورسالة المرقش الأكبر(٤) ، فهي بمجموعها كانت رسائل شعرية خالصة لا مكانَ للنثر فيها ، فسرى هذا الأسلوب بين شعراء الرعيل الأول من المسلمين حتى عدُّوه الأداة الفنية الفضلى في التخاطب بين المتباعدين ، وقد انمازت هذه الرسائل بطابعها الاجتماعي وتفردت بأسلوبها الذي بقي معتمَداً لدى الشعراء إلى زمن الفتنة ووقعة صفين .

وقد اتخذت رسائل أخرى مظهراً آخرَ غير الذي انبنتْ عليه رسائل الشعر الخالص وهي:

٢. رسائل مذيَّلة بالشعر ، وهي على ضربين :

أ. رسائل صدرُها نثر مذيَّلة بالشعر ، وهي بقسميها من صنعة المرسِل . أما النثر في مثل هـذه الرسـائل فيتسمُ في غالبيته بتركيزه الشديد، وبتكثيفٍ لا يخلو من الإبهام في بعض صوره، كمـا حصـل في رسـالة معاويـة إلى أبـي أيوب الأنصاري ، إذ كتب إليه قائلاً : (حاجيتُكَ ، لا تنسى الشيباءُ أبا عُذرِها، ولا قاتِـلَ بِكْرِهـا) ، فلـم يـدرِ أبو أيوب ما القصدُ الذي يختبئ وراء هذا اللغز ، ففسَّره الإمام علي ﷺ بقوله: (هذا مَثَلٌ ... يقـول: لا تنسـى الشيباءُ أبا عُذرِها، والشيباءُ: المرأةُ البكر ليلةَ افتضاضِها لا تنسى بعلَها الذي افترعهـا أبـداً، ولا تنسـى قاتِـلَ بِكرها، وهو أول ولدها، كذلك لا أنسى قتلَ عثمان)(٥).

أما الشعر فقد مَثَّل لُباب تلك الرسائل حينما فسَّر لنا ما غمض من صدر الرسالة النثري، وبلا شك فإن اعتماد الشعر في هذه الرسائل وفي مثيلاتها كان ضرورةً لا مناصَ عنها ، فهو يعضـد معـاني القسـم النثـري مـن الرسـالة ،

(٣) ديوان عدي بن زيد العبادي : ١٦٤ .

(٤) ينظر : الموثبات على التوالي : ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦ .

(٥) شرح نهج البلاغة : ٤٣/٨ .

ويضفي عليه طابعاً جمالياً يجلّي معانيه ويقربها إلى فهم المتلقي ، فلْنسمعْ معاوية حيث يقول تذييلاً لتلك الرسالة الآنفة الذكر :

أَبْلِغْ لَدَيْكَ أَبَا أَيّوبَ مَأْلُكَةً أنّا وقومَك مِثْلُ الذّئبِ والنَّقَدِ
إمّا قَتَلْتُمْ أميرَ المؤمنينَ فَلاَ تَرْجُوا الهَوَادَةَ عندِي آخِرَ الأَبَدِ
إنّ الذي نِلْتُمُوهُ ظَالِمِينَ لَهُ أَبْقَتْ حَرارتُهُ صَدْعاً عَلَى كَبِدي(٦)

فالأبيات ـ كما هو بيِّن ـ تُفصح عما تضمنه النص النثري من دلالة ، وتكشف عن نوايا الشاعر التي تصب في نوايا (الشيباء) .

ب. رسائل صدرها نثر مذيلة بأشعار ليست من صنع أصحاب الرسائل ، إنما هي لشعراء سبقوهم اعتمدوها هم على سبيل التمثل للاعتبار والتأسي ، أو لتقرير حال من الأحوال التي يرغبون فيها على نحوٍ يحمل المتلقي على الاعتقاد بأنها حال تلبَّستهم حتى غدت عندهم سجيةً من سجاياهم ، وخصلة من خصالهم ؛ فعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أراد أن يزرع في روع معاوية بن أبي سفيان أن شماتته بموت الإمام علي ﷺ لا جدوى منها ، ودسَّه عيوناً في البصرة يتلمس فيها غفلةً منه كنعجةِ عاد التي نبشت بكراعها عما أوردها الهلاك :

لعمرُكُ إنـي والخزاعيَّ طارقاً كنعجةِ عادٍ حثْفُها تتحفّرُ
أثارتْ عليها شفرةً بكُراعِها فظلَّت بها من آخرِ الليلِ تجزرُ
شَمَتَّ بقومٍ هم صديقُك أُهلِكوا أصابَهم يومٌ مِنَ الدَّهرِ أمعَرُ(٧)

فأجابه معاوية : ((إنّك لم تُصَبْ مثلنا ، ولكن مثلُنا ومثلُكم كما قال طارق الخزاعي :

فواللهِ ما أدري وإني لصادقٌ إلى أيِّ مَن تظنُّني أتعَذَّرُ؟
أُعَنَّفُ أن كانتْ زُبَينةُ أُهلِكَتْ ونالَ بني لَحيانَ شرٌّ ونُفِّروا(٨)

فالنص النثري في غاية الإيجاز ، بلا إخلال بالمعنى ، ولا فضول في الكلام ؛ أما أبيات النصين السابقين فينحو كلٌّ منهما منحًى مختلفاً عن الآخر ، فالأول ينشر عبق الحكمة التي تخلص إلى أن الموت يكمن في كل الزوايا بما فيها الزوايا التي تحاك فيها خيوط التآمر؛ والثاني اعتذار عن تهمة لا وجود لها إلا في مخيلة المدّعي ، فكأنه يريد أن يقول إنك اتهمتَني وأصدرتَ حكمك على الظنّ حسبُ ، فحالي ـ عندك ـ كحال طارق الخزاعي الذي عنَّفه

(٦) مجموع شعر معاوية المنشور في مجلة الأحمدية ، ع١٧ ، يونيو ٢٠٠٤ : ٢٣٩ .
(٧) الأغاني : ٢٦/٢١ . أمعر : قليل الخير ، والأبيات لأمية بن الأسكر كما في الأغاني : ٢٥/٢١ .
(٨) نفسه : ٢٧/٢١ .

بنو زبينة على تهمة استندت إلى الظن المحض ، فما عنفتَني عليه إنما هو مما ليس لي فيه يد ، بل هو قضاء الله وقدرهُ في اختيار عبد من عباده بإنزال حكم الموت فيه كنزوله ببعض بني زبينة في غزوة المريسيع(٩).

والحق أن وجود النثر ـ بأي حجم كان ـ في رسائل من هذا النوع لا يمكن أن يلغي شعرية النص بحجة أن الشعر في مثل هذه الرسائل إنما جاء تذييلاً لها بقصد التمثل ، أي ضرب المثل للعبرة والاتعاظ ؛ وبلا ريب فإن وجود الشعر في مثل هذه الرسائل إنما يعضد من وجود النثر .

ولطالما أدّى الشعر في مثل هذه الرسائل وظيفةً اجتماعيةً وفكرية ، وأثار متعةً جماليةً فإن الحاجة إليه تظل قائمةً ، ويصح عندئذٍ وصف الرسالة التي تنضمُّ عليه بأنها شعرية من باب التغليب ليس غير ؛ وينبغي ألاّ يغربَ عن الذهن أن الرسائل التي زاوجت بين النثر والشعر إنما اعتمدها أصحابها في الموضوعات السياسية التي فرضتها طبيعة الصراع الذي أعقب الفتنة ، وعلى ذلك فهي تمثل صورة من صور التطور للرسائل في هذه المرحلة ، إذ كانت في الجاهلية شعريةً محضة ، ثم تطلَّب الظرف السياسي في عصر صدر الإسلام أن تكون عند أرباب السياسة نثريةً(١٠) ؛ لقدرة النثر على الخوض في كل التفصيلات العامة والخاصة ، من غير الالتزام بقوانين الشعر التي تحدُّ كثيراً من اندفاعة المنشئ في التعبير ، على حين أنها حافظت على شعريتها عند غير أهل السياسة ، ولكن ما إن ضربت الفتنة أطنابها بين المسلمين حتى ألفينا تلك المزاوجة تطل علينا عبر رسائل هذه المرحلة من حياة المسلمين ، وهذا ناجم عن إدراك هؤلاء الساسة أهمية الشعر في إضاءة النص النثري وتعضيد موقفه ، فهو على ذلك بمثابة المحفز الذي يستقطب انتباه المتلقي نحوه بقصد إيصال المضمون إليه .

نخلص من هذا كله إلى أن النص الشعري في هذه الرسائل إنما ظل هو المهيمن على مغزى الرسالة ، سواء بما انفرد به من إمكانات فنية تمتلك القدرة على أن تترك ظلالها على المعاني ، أم بترجمته المكثفة للمعاني التي لم يستطع النثر وحده أن يشحنها بشحنة الشعر المؤثرة ، وعلى هذا يظل شعر خواتم الرسائل بمختلف أنواعها أميناً على وظيفته في الحفاظ على روحية المعنى التي يروم الشاعر إيصالَها إلى المتلقي ؛ وبهذا استحقت رسائل هذا النوع أن توصف بالشعرية .

أنواع الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام

إنّ من بين الرسائل الشعرية التي استندت إلى المظهرين اللذين فصَّلنا فيهما القول ما استمد مكوناته من ثقافةٍ ظلت تحلق في فضاءات الماضي ، وبقيت تتنفس من هوائها ، فشكلت امتداداً طبيعياً لثقافة العرب الموروثة ، على

(٩) ينظر : نفسه : ٢٥/٢١ . أصاب أصحابُ النبي ﷺ بني زبينة يوم المريسيع فاتهموا ـ باطلاً ـ طارقاً الخزاعي بأنه هو الذي دل عليهم .

(١٠) ينظر : الأمالي في الأدب الإسلامي : ٣١٢ .

ما فيها من تقاليد راسخة وقيم ثابتة ، ومعانٍ لم تتبدل إلا بمقدار ؛ ومنها تلك التي استمدت معطياتها من ثقافة الإسلام لأنها تخلقت في رحِمهِ، وتغذَّت من فيض فكره ، وتنسمت من طيب هوائه ، فصلُب عودُها ، وعذُب نغمُها ، فترددت أصداءُ العقيدة عبر إيقاعها ، وقد تنوعت هذه الرسائل بتنوع موضوعاتها ، وتلونت بأصباغ البيئة الاجتماعية في حالتي سلمها وحربها . أما أبرز تلك الأنواع فهي :

١. رسائل اللوم والتقريع :

يقع اللوم في حال إحساس الشاعر بأن ثمةَ تقصيراً متعمَّداً قد تأتّى ممن لم يتوقع منه الزلل، والقصد منه حمل الطرف المقصر على استحضار عنصر الرقابة الذاتية لاجتناب الأخطاء التي لا يرضاها له الشاعر . فكعب بن زهير يرى أخاه بجيراً قد فارق دين الآباء والأجداد ، فيتألم لذلك ، فيعمد إلى تقريعه :

أَلا أَبلِغا عَنِّي بُجَيراً رِسالَةً فَهَل لَكَ فيما قُلتُ بِالخَيفِ هَل لَكا
شَرِبتَ مَعَ المَأمونِ كَأساً رَوِيَّةً فَأنهَلَكَ المَأمونُ مِنها وَعَلَّكا
وَخالَفتَ أَسبابَ الهُدى وَتَبِعتَهُ على أيِّ شيءٍ ويْبَ غيرِكَ دَلَّكا
عَلى خُلُقٍ لَم تُلفِ أُمّاً وَلا أَباً عَلَيهِ وَلَم تُدرِك عَلَيه أَخاً لَكا(١١)

فكعب لم يرتضِ لأخيه أن يخالف أخلاقاً لم يلفِ عليها أبويه أو أخاً له ، فهو يرفض الدين الذي تكفّل (المأمون) بحمل رسالته ، فاعتناقه مخالفةٌ لأسباب الهدى على ما يراه كعب، واستفزاز لمشاعره التي أَلِفت الثقافة الوثنية ، فلم تعد تحتمل مغادرة مواقعها ، فرسالة كعب هذه إنما هي ردةُ فعلٍ لما أرادت أن تؤسس له ثقافة الإسلام التي جسدها بجير برسالة بعث بها إليه :

فَمَن مبلِغٌ كَعباً فهَل لَكَ في التي تلومُ عليها باطِلاً وَهي أحزَمُ
إلى اللَهِ لا العُزى ولا اللاتِ وحدَهُ فتنجُو إذا كان النجاءُ وتسلَمُ
لدى يومٍ لا ينجُو وليسَ بمُفلِتٍ منَ النارِ إلا طاهرُ القلب مُسلِمُ
فَدِينُ زُهيرٍ وَهوَ لا شيءَ دينُهُ ودينُ أبي سُلمى عَلَيَّ مُحَرَّمُ(١٢)

فكعب ينطلق من الموروث الديني الوثني في جدله وحِجاجه ، على حين ينطلق بجير مما بشَّر به القرآن وأنذر ؛ والتقريع الذي حملتْه رسالتا كعب وبجير إنما يراد به الإيجاع باللوم(١٣) لكف الملوم عن الإتيان بما يخالف ما هو مطلوب منه ، وعلى ذلك فإن اللوم على ما فيه من الإيجاع لم يبلغ مبلغ الهجاء، إذ إن اللوم فيه من

(١١) شرح ديوان كعب بن زهير : ٣–٤ .

(١٢) نفسه : ٤ .

(١٣) لسان العرب : (لوم) .

المناورة والمرونة ما يبقي على حبل الود موصولاً بين الطرفين ، على خلاف الهجاء الذي فيه صرامة وأحكام قاطعة توهن العلاقات ، وتصل بها حد القطيعة .

٣. رسائل المديح :

دخلت العقيدة الإسلامية مكوناً أساسياً من مكونات المديح الإسلامي ، وقد تلمسنا آثار ذلك في الرسائل الشعرية التي بعث بها أصحابها إلى ممدوحيهم ، والمديح ـ كما هو معلوم ـ إسباغ الصفات المحمودة والفضائل الاجتماعية على الممدوح ، ومن شأن المدح أنه يحرك أريحية الممدوح ويهز أعطافه فينفعل بما أضفي عليه من صفات ، فتحصل الاستجابة لما هو مرغوب فيه . والجدير بالذكر أن المديح في بعضٍ من صورهِ ظل يستمد عناصره من منابع الثقافة العربية قبل الإسلام ، فبقيت المروءة بمعطياتها الثرّة هي النبع الفياض الذي اغترف المديح منه جُلَّ صورهِ ، فالكرم ، والشمم ، وطول الباع ، والوفاء ، وما يضارع كل ذلك من أوصاف ظلت هي الذخيرة الحية التي تملأ الآفاق بجلجلتها والتي تبهج النفوس . فرسالة الوليد بن عقبة إلى لبيد بن ربيعة العامري إنما هي التجسيد الحي لكل ذلك :

أَرى الجَـــزّارَ يَشـــحَذُ شَـــفرَتَيهِ إِذا هَبَّـــت رِيـــاحُ أَبـــي عَقيـــلِ
أَشَـــمُّ الأَنـــفِ أَصـــيدُ عـــامِرِيٌّ طَويـــلُ البـــاعِ كَالسَّـــيفِ الصَّـــقيلِ
وَفـــي ابـــنُ الجَعفَـــرِيِّ بِحَلفَتَيـــهِ عَلـــى العـــلّاتِ وَالمـــالِ القَليـــلِ
بِنَحـــرِ الكـــومِ إِذ سُـــحِبَت عَلَيـــهِ ذُيـــولُ صَـــباً تَجـــاوَبُ بِالأَصـــيلِ(١٤)

فأجابته ابنة لبيد قائلةً :

إِذا هبّـــت رِيـــاحُ أَبـــي عقيـــلِ دَعَونـــا عنـــدَ هبّتهـــا الوَليـــدا
أَشـــمَّ الأنـــفِ أَروعَ عَبشـــميّاً أَعـــان عَلـــى مُروءَتـــهِ لَبيـــدا
بِأمثـــالِ الهضـــابِ كـــأنّ رَكبـــاً عَلَيهـــا مِـــن بَـــني حـــامٍ قعـــودا
أَبـــا وهـــبٍ جَـــزاكَ اللّـــه خَـــيراً نَحرناهـــا فَأَطعمنـــا الثريـــدا
فَعُـــد إنّ الكـــريمَ لـــه معـــادٌ وَظنّـــي لا أبـــا لـــك أَن تَعـــودا(١٥)

فالناظر في فحوى الرسالتين يلاحظ أن الموروث القيمي الذي استمد منه الوليد بن عقبة وابنة لبيد عناصر مدحيهما ليس فيه من القيم الجديدة سوى ما احتجنه البيت الرابع من رسالة ابنة لبيد من توجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء للممدوح بالخير ؛ وافتقرت رسالة الوليد إلى ما يزينها من قيم هي وليدة الإسلام ، ومع ذلك

(١٤) شعراء أمويون : ٥٤/٣ .

(١٥) الأغاني : ٢٩٩/١٥ .

نستطيع القول إن معطيات الموروث الثقافي الذي اشتملت عليه تلك الرسائل إنما هي قيم عربية أصيلة تشربت بها الثقافة الجاهلية فأقرّها الإسلام ، واعتدّها من الفضائل التي وصفها الرسول الكريم محمد ﷺ بمكارم الأخلاق حينما قال : (إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق)(١٦).

وثمة تفاوت بين الشعراء في مدى الإفادة من القيم الإسلامية في رسائلهم ، فهذا الحطيئة على رقة اعتقاده(١٧) يتشبث بعقيدة الإسلام يستمد منها ما يستدر فيه عطف عمر بن الخطاب ﷺ حين حبسه لهَجْوِهِ الزبرقان بن بدر ، إذ يقول :

مـــاذا تَقُـــولُ لأَفْـــراخٍ بـــذِي مَـــرَخٍ حُمْـــرِ الحَواصِـــلِ لا مـــاءٌ ولا شَـــجَرُ
غَيَّبْـــتَ كاسِـــبَهُمْ في قَعْـــرِ مُظْلِمَـــةٍ فـــاغْفِرْ، عليـــكَ سَـــلامُ اللهِ يـــا عُمَـــرُ
أَنْـتَ الأمـينُ الـذي مِـن بَعْـدِ صـاحِبِهِ أَلْقَـــتْ إليـــكَ مَقالِيـــدَ النُّهَـــى البَشَـــرُ
لَـــمْ يُـــؤْثِرُوكَ بهـــا إذْ قَـــدَّمُوكَ لَهـــا لكـــنْ لأَنْفُسِـــهِمْ كانـــتْ بهـــا الأثَـــرُ
فـامْنُنْ علـى صِـبْيَةٍ بالرَّمْـلِ مَسْـكَنُهُمْ بَـــيْنَ الأَبـــاطِحِ يَغْشـــاهُمُ بِهـــا القـــرَرُ
أَهْلِـــي فِـــداؤُكَ، كـــم بَيْنِـــي وبَيْـــنَهُمُ مِـن عَـرْضِ دَوِّيَّـةٍ يَفْنَـى بهـا الحَجَـرُ(١٨)

فالغفران ، وسلام الله ، والأمين ، كلها معانٍ إسلامية استثمرها الحطيئة في رسالته ، وهو يستمري بها عطف الخليفة ، فضلاً عن المعاني الأخرى التي ترسم صورة مؤثرة لما يعانيه أولئك الصبية من جوع ، وحر ، وقر ، لا يقوون على مقاومتها من دون أبيهم ، وهي معانٍ إنسانية يؤثرها الإنسان ، وتهتز لها نفسه بغض النظر عن العصر الذي يعيش فيه .

٣. رسائل الشكوى من العمّال ومن الخارجين على حدود الشريعة :

اتسعت رقعة دولة الإسلام على عهد عمر بن الخطاب ﷺ ، وازدادت الولايات التابعة لها عدداً ، فاقتضى الحال تعيينَ ولاةٍ وعمّال يديرون شؤونها نيابةً عن المركز ، فاستأثر بعض أولئك العمال بما تدرُّه عليهم أقاليمُهم واستأثروا بالأموال لأنفسهم ولأتباعهم ، فوقف لهم الشعراء بالمرصاد ، فشَكَوهم إلى خليفة المسلمين ، إذ ليس ثمة حجابٌ كان يحول بينهم وبين الخليفة ، وليس ثمة راصد يُحصي عليهم ألفاظ شكاياتهم فينزل فيهم سوء العقاب ، فانطلقت ألسنتهم تفضح مثل هؤلاء ، وتركز الأنظار على ما اجترحته أيديهم من سوء ، فهذا أبو المختار يزيد

(١٦) السنن الكبرى : ١٩٢/١٠ .

(١٧) ينظر : الشعر والشعراء : ٣٢٨/١ .

(١٨) ديوانه : ١٠٧–١٠٨ . والإشارة إلى كون الأبيات رسالةً وردت في العقد الفريد : ٢٩٣/٥ .

بن قيس بن يزيد بن الصعق يبعث برسالة إلى عمر بن الخطاب ﷺ يشكو فيها عسف عمال الأهواز وغيرهم حينما تحسس منهم تطاولاً على حقوق عباد الله :

أبلـــغْ أمـــيرَ المـــؤمنينَ رســـالةً فأنـــتَ أمـــينُ اللهِ في النّهـــيِ والأمـــرِ
وأنـــتَ أمـــينُ اللهِ فينـــا ومَـــن يكـــنْ أمينـــاً لـــربِّ العـــرشِ يسلمْ لـــه صـــدري
فـــلا تَـــدَعَنْ أهـــلَ الرســـاتيقِ والقُـــرى يســـيغونَ مـــالَ اللهِ في الآدمِ الـــوَفْرِ

ويشير بأصبع الاتهام إلى رجال ذكر أسماءهم واحداً فواحداً ، فكانت عدتهم عشرة ، ثم يشير على أمير المؤمنين أن يقاسمهم الأموال ، ويستنقذ ما بحوزتهم من أموال المسلمين ، ويُبقي منها على الشطر الذي يستحقون :

فقاسِـــمْهُمُ ، أهلـــي فـــداؤكَ إنّهـــم سيرضَـــونَ إنْ قاسَـــمْتَهمْ منـــكَ بالشـــطرِ
ولا تـــــدعُوَنّي للشَّـــــهادةِ إنَّـــــني أغيـــبُ ولكنّـــي أرى عجـــب الـــدّهرِ

فهو لم يرَ سرقةَ بعضهم جهاراً ، إنما استدل على ذلك بالعقل والمنطق :

نَـــؤوبُ إذا آبـــوا ونغـــزو إذا غَـــزَوا فـــأنّى لهـــم وَفْـــرٌ ولســـنا أولـــي وَفْـــرِ؟!
إذا التـــاجرُ الـــداريُّ جـــاءَ بفـــارةٍ من المسكِ لاحتْ في مفـارقِهم تجـري!(١٩)

فشاطرهم عمر أموالهم(٢٠) ، فأبو المختار يحمِّل الخليفة مسؤولية الحفاظ على أموال المسلمين، فهو أمير المؤمنين، وما دام هو كذلك لا يجد الشاعر بداً من أن يرتقي الأمير بسلوكه إلى حيث مرقاة إمارة المؤمنين، وهو أمين الله في عباده ، ولطالما كان كذلك فليفتح له الشاعر مغاليق صدرهِ ، ولْيُبح بما لم يستطعِ البوحَ بـه أمـام مَـن هـو غـير أمين الله .

ومما لا ريب فيه إن الإيمان بعقيدة الإسلام يتفاوت فيه الناس تفاوتاً كبيراً ، فمنهم من استمسك بعروة الإسلام الوثقى ، وعدَّ نفسه جندياً من جنود الله ، ومنهم من بقي على ثقافته الجاهلية فلم يتغير إلا في الظاهر ، واستمر الغويُّ على غوايتِهِ فلم يرتدع بنواهي العقيدة وتحذيراتها ، فقد ((كان بالمدينة رجل يسمى (جعدة) ، يرجِّلُ شَعره ، ويتعرض للنساء المِعْزَبات ، فكتب رجل من الأنصار [يقال له : بُقيلة الأكبر ، وكنيته أبو المنهال](٢١) كان في الغزو إلى عمر بن الخطاب ﷺ :

أَلاَ أَبلـــغ أبـــا حَفْـــصٍ رســـولاً فـــدًى لـــك مـــن أَخـــي ثِقَـــةٍ إزَارِي
قَلائِصُـــــنا هـــــدَاكَ اللهّ إنّـــــا شُـــغِلنا عـــنكُمُ زمـــنَ الحصـــارِ

(١٩) فتوح البلدان : ٣٧٧ . والبيت الأول فيه خرم وهو حذف أول الوتد المجموع .

(٢٠) ينظر : العقد الفريد : ٢٨١/٥ .

(٢١) لسان العرب : مادة (عقل) .

فمـــا قلُـــصٌ وُجـــدْنَ معقـــلاتٍ قفـــا ســـلعٍ بمختلـــف النجـــارِ
يُعَقِّلُهـــــنّ جَعْـــــدٌ شـــــيظمي وبـــنُسَ مُعَقّـــلُ الـــذَّوْد الظُّـــؤارِ(٢٢)

فقد كنى الشاعر بالقلائص ((وهي النوق الشوابّ عن النساء ، وعرَّض برجلٍ يقال له (جعدة) كان يخـالف إلى المغيبات من النساء ، ففهم عمر ما أراد وجلد جعدة ونفاه))(٢٣).

وبلا شك فقد أسهمتْ هذه الرسائل في أن تؤدي وظيفتها في تقـويم الانحـراف ، وردع الغـواة عـن غوايـاتهم، وهي تثبت في الوقت نفسه حرص خليفة المسلمين على متابعة شؤون الرعية ومحاسبة من يستحق منهم الحساب .

٤. رسائل الاعتذار :

غالباً ما تنشأ صلات اجتماعية متينة بين أفراد المجتمع الواحد بحكم تلاقي مصالحهم ، وتقارب أهوائهم ، وانسجام أفكارهم ، وقد تبلغ تلك الصلات درجة من التواشج يصعب معها الانفصام ، وانفراط العقد ، ومع ذلك فقد يتسلل الوهن إلى تلك العلاقات لسبب من الأسباب ، فيقع ما حقه ألاّ يقع ، فيكون الاعتذار وسيلة لرأب الصدع بين الأكْفاء ، وسبيلاً من سبل الاسترضاء بين المعتذِر والحاكم ، وقد يتوسل المعتذر بالاستعطاف حيناً وبالعتاب الهادئ حيناً آخر ، وإن شاء أن يعتمد الحجة فقد كان يتلطف في التماس الدليل المفضي إليهـا(٢٤)، فهـو لـيس في موقـف يسمح له بإقامة الدليل على خطل رأي الحاكم أو السلطان ، وهذا لا يعني أن ليس ثمة من يركن إلى الحُجّـة يلـتمس فيها الدليل على سلامة موقفه ، فقد روي أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ كان قد أمر بنفي نصر بن حجـاج السلمي إلى البصـرة بعـد أن تغنـت إحـداهنّ بحُسـن خُلُقِـه وخَلْقـهِ ، إذ خشـي الخليفـة مـن افتتـان الغـواني بـه ، فحاجّهُ(٢٥) نصر برسالة شعرية زاوجت بين الحجاج والاستعطاف :

لعَمـــري لـــئن ســـيّرتَني أو حـــرمتَني ومـــا نلـــتُ ذنبـــاً إنّ ذا لحـــرامُ
ومـــالي ذنـــبٌ غـــير ظـــنٍّ ظننتَـــهُ وفي بعـــضِ تصـــديقِ الظّنـــونِ أثـــامُ
أإنْ غنّـــتِ الحـــوراءُ لـــيلاً بمُنيـــةٍ وبعـــضُ أمـــانيِّ النّســـاءِ غـــرامُ
ظننـتَ بـيَ الظّـنَّ الـذي لـيس بعـدَهُ بقـــاءٌ ومـــالي في النّـــديِّ كـــلامُ
وأصـبحتُ منفيّـاً علـى غـيرِ ريبـةٍ وقـد كـان لـي بـالمكّتينِ مقـامُ(٢٦)

(٢٢) العمدة : ٣١٢/١-٣١٣ .
(٢٣) نفسه : ٣١٣/١ .
(٢٤) ينظر : نفسه : ١٧٦/٢ .
(٢٥) ينظر : خزانة الأدب : ١٠٩/٢-١١١ .
(٢٦) نفسه : ١١١/٢ .

فهو على ما يرى مظلوم ، لم يأتِ بفاحشة مبيِّنة ، وله من الروادع ما يمنعه من مقاربة الإثم واجتراح أسباب الرذيلة :

ويمنعنُـــي ممـــا يُظَـــنُّ تكرُّمـــي وآبـــاءُ صـــدقٍ ســـالفونَ كـــرامُ

أما تلك الغانية التي سماها الخليفة (المتمنية) فيردعها صلاحُها وجميل عبادتها :

ويمنعُهـــا ممّـــا تمنّـــتْ صـــلاحُها وطـــولُ قيـــامٍ ليلـــها وصـــيامُ

وتطفح رقة المشاعر على شفتيه مفوَّفةً بعطر الاستعطاف ، علَّها تجد سبيلها إلى قلب عمر ﷺ ، فيعيده من منفاه إلى حيث سعادته :

فهاتـــان حالانـــا فهـــل أنـــت راجعـــي وقـــد جُـــبّ منّـــي كاهـــلٌ وســـنامُ(٢٧)

أما المتمنية التي تغنت بمحاسن نصر في بعض من قولها :

أَلا ســـــبيلَ إلى خمـــــرٍ فَأشـــــربها أَم لا ســـبيلَ إلى نصـــر بـــن حجّـــاجِ(٢٨)

فقد سمعها عمر بن الخطاب ﷺ وهو يعسُّ في تلك الليلة في بعض سكك المدينة فحبسها، فعلمت أنه قد سمعها ، فكتبت إليه معتذرةً ، إذ قالت :

قُـــل لِلإمـــامِ الّـــذي تُخشـــى بـــوادرهُ مـــا لـــي وَللخمـــرِ أَو نصـــر بـــن حجّـــاجِ

إنّـــي غنيـــتُ أبـــا حفـــص بغيرِهمـــا شـــربِ الحليـــبِ وطـــرفٍ قاصـــرٍ ســـاجِ

لا تجعـــل الظـــنّ حقّـــاً أو تيقّنـــه إنّ الســـبيلَ ســـبيلُ الخـــائفِ الراجـــي

إنّ الهَـــوى زمّـــهُ التقـــوى فخيّسَـــهُ حتّـــى أقـــرّ بإلجـــامٍ وإســـراجِ(٢٩)

فعذرها وبعث إليها قائلاً : (لم يبلغنا عنكِ إلا خير)(٣٠). ويبدو أن عمر بن الخطاب ﷺ كان قد اقتنع بلطيف حِجاجها ، فهي لم تعن بالخمر إلا الحليب ، ولم تقصد بنصر بن حجاج إلا ما يمثل الطهر والعفة، أما الهوى فقد ألجمتْه بالتقوى، فذلَّ وسلس قيادُهُ، حتى غدا طوعَ بنانها، لا يخالف الشارع الذي ارتضت الانقياد له.

٥. رسائل الهجاء :

الهجاء على خلاف المديح ، وهو نقيضه ، يستلب فيه الشاعر كلَّ محمدةٍ يتصف بها خصمُه ، ويضفي عليه نقيضها من الصفات المستهجنة، بحقٍّ أو بغيره ، وقد ارتبط هذا الغرض بالمنافسات والمنازعات التي كانت تقع بين الأفراد والجماعات .

(٢٧) نفسه : ١١١/٢ .

(٢٨) نفسه : ١٠٨/٢ .

(٢٩) المصدر السابق : ١٠٩/٢ .

(٣٠) نفسه .

وأخذ الهجاء في عصر صدر الإسلام منحًى جديداً في كثير من صوره ، فتارةً يقترب مما ألفناه في هجاء أهل الجاهلية ، وأخرى يخطو بثبات نحو ثقافة الإسلام ، فغدا الذنبُ معرَّةً يتضاءلُ صاحبها حيثما تناولتها الألسن ؛ والمال الذي يثمّره الحرام سحتاً يوبَّخ عليه مجتنيه ، والكفران جريمة تستوجب إقامة الحد ، ودوران هذه المعاني في الهجاء الجاهلي لم يكن مألوفاً، ولم يعد مجدياً الاكتفاء بالقول ـ إذ ذاك ـ هذا حلال وذلك حرام ، إنما الطرق على آذان السلطان هو الذي يكفل تقويم الاعوجاج ، وتعديل الانحراف ؛ فحارثة بن بدر الغدّاني ـ مثلاً ـ تولى أمر كُوار عاملاً لزياد بن أبيه ، وهو إذ ذاك عامل علي كرم الله وجهه على فارس ، فكتب زياد إليه رسالةً يحثه فيها على الإسراع بجباية الخراج ، فكتب إليه علقمة بن معبد المازني :

ألمْ تَـرَ أنَّ حارثـةَ بْـنَ بَـدْرٍ يصـلِّي وهـوَ أَكْفَـرُ مِـنْ حِمـارِ(٣١)

وأنَّ المـالَ يَعـرِفُ مَـنْ حَـواهُ ويُعـرَفُ بـالزَّواني والعُقَـارِ(٣٢)

فصلاة حارثة رياء ، وهو أكفر من (حمار بن مالك) الذي أسلم ثم كفر ، ودعا قومه إلى الكفر؛ والأموال حبيسة أكياسه ، فإن شاء أن يفك قيودها ويطلق يده فيها فلن تجد سبيلها إلا إلى تعاطي الزنى ومعاقرة الدنان .

وإذا كانت جذوة الهجاء لا تجد سبيلها إلى النفوس الغاضبة الحاقدة إلا من خلال تفشي الخلافات ، والتنافس ، وانتشار الحروب على مستوى الأفراد والجماعات ، فإنّ ما طرأ على حياة المسلمين منذ أن تقلد الإمام علي ﷺ مقاليد الخلافة سنة ٣٥هـ إلى حين استشهاده ﷺ سنة ٤٠هـ كان كفيلاً بإيقاد جذوة الشعر بمختلف فنونه : هجاءً ورثاءً ، مديحاً وتوثيباً ، تهديداً وإنذاراً ووعيداً .

والحقُّ أن المدة الزمنية التي استغرقتها تلك الأحداث ـ وهي طويلة نسبياً ـ قد أتاحت فرصة ذهبية تبادل فيها الشعراء من الفريقين رسائل تنوعت أغراضها ، وتعددت مراميها ، ولا غرابة في أن يأخذ الهجاء حصة متميزة من تلك الرسائل ، فقد أفاد منه معاوية في الحط من أقدار خصومه ، فلنسمعه وهو يخاطب زياد بن أبيه :

تَنْسَـى أبـاكَ عُبيـداً في سـخافتِهِ إذْ تَخْطُـبُ النـاسَ والـوالي لنـا عُمَـرُ

فَـافخرْ بوالِـدِكَ الأَدْنـى ووالـدِهِ إنّ ابـنَ حَـرْبٍ لَـهُ في قَوْمِـهِ خَطَـرُ

إنّ انتهـازَكَ قَوْمـاً لا تُناسِـبُهُم إلاّ بأُمِّـكَ عـارٌ لَـيْسَ يُغْتَفَـرُ

فابعِـدْ ثقيفـاً فـإنّ الله أبعَـدَها ولـيس يجمعُهـا في أهلـها مُضَـرُ(٣٣)

فهو يغمزه في نسبه قبل التحاقه بنسب أبي سفيان آمِلاً منه أن يتنكر لهذا النسب ويرضى بالانتساب إلى صخر بن حرب علَّه يجد فيه سنداً يتقوى به على الإمام علي ﷺ بعد أن يخلع طاعته ، فهو تحريض على العصيان مبطن بهجاء مقذع ؛ ومعاوية في كثير من رسائله ولا سيما في هذه الرسالة ظل ينظر بعين الماضي ولم يرقه أن ينظر

(٣١) هو حمار بن مالك الأزدي عُرف بكفره بعد إسلامه وبدعوته قومه إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام ، وقد ضُرب المثل به من حيث المبالغة بالكفر . ينظر : مجمع الأمثال : ١٦٨/٢ .

(٣٢) الأغاني : ٤٦٨/٢٣-٤٦٩ .

(٣٣) مجموع شعر معاوية : ٢٤٧ .

بعين الحاضر ، فالانتساب إلى عبيد الثقفي عار ، والأجدر بزياد أن يفجر في شراييـنه دماء صخر بن حـرب حقاً أم باطلاً ، وإن انتهازه قوماً لا يمتّون إليه بصلة إلا من طرف الأم عار ما بعده عار . وبالرشاء نفسه يمتَحُ النجاشيُّ معانيه ليوازن بين شخصية الإمام علي وشخصية معاوية ، فهو ما زال يحدق في قعر البئـر الـذي مـتح منـه طرفـة والأعشى والنابغة الذبياني والحطيئة في انتمائه الجاهلي معانيهم ، فيلتقط منها ما يناسب الشخصيتين ، فيضفيها عليهما :

يـــا أيُّهـــا المِلِـــكُ المُبْـــدي عداوتَـــهُ انظـــر لنفسِـــكَ أيّ الأمـــر تَـــأتَمِرُ
فـــإن نفَسْـــتَ علـــى الأقـــوام مَجْـــدَهُمُ فابسُـــطْ يَـــديكَ فـــإنّ الخـــيرَ مُبْتَـــدرُ
واعلـــمْ بـــأنّ علـــيَّ الخـــير مِـــن نَفـــرٍ شُـــمِّ العَـــرانين لا يَعْلـــوهمُ بَشَـــرُ
نِعْـــمَ الفتـــى أنـــتَ إلاّ أنَّ بينكمـــا كَمـــا تَفاضَـــلَ ضـــوءُ الشّـــمس والقمـــرُ
ومـــا إخالُـــكَ إلا لســـتَ مُنْتهيـــاً حتـــى ينالَـــك مـــن أظفـــارهِ ظُفُـــرُ(٣٤)

ولا يخفى أن هذه الأبيات قد اعتمدت أسلوب الهجاء المقذع الذي يستند إلى المفاضلة بـين ممـدوح ومهجـو ، فيقال : هذا أفضل من هذا وأشرف(٣٥).

وتظل رسائل الهجاء سلاحاً ماضياً بيد أصحابها ينتضونه متى ألجأتهم الضرورة إليه ، فيستنزلون بـه ذوي العلياء من عليائهم ، ويستنزفون به الروح المعنوية لأعدائهم ، ويصعّدون روح الكبرياء والشموخ في نفـوس ذويهـم لكسب الفوز على خصومهم

٦. رسائل التوثيب :

ونعني بها النصوص الشعرية التي كان يبعـث بهـا أصحابها إلى المرسَل إلـيهم بقصـد تحريضـهم ، وإثـارة نخوتهم ؛ طلباً لثأرٍ أو رداً لإهانةٍ ، أو رفضاً لذل ، أو رحضاً لعار ، أو ثأراً لكرامة ، أو طلباً لنصرة(٣٦).

ولعلنا لا نجانب الحق إذا قلنا : إن هذا النوع من الرسائل إنمـا شـاع اسـتعماله علـى نحـوٍ لافـت منـذ مقتـل عثمان ﷺ وما تلاه من أحداث جسام تركتْ شروخاً عميقة في حياة المسلمين ، إذ تعمق الخـلاف ، ونشـبت حـروب كادت أن تدق إسفيناً بين المسلمين ، وبدهي أن ترتبط رسائل التوثيب بظروف الحرب ، والخلافات التي تنجم عـن حدة الصراع بين أطرف النزاع الذي أفرزته تلك الفتنة ، وليس ثمـة شـك في أن الأحـداث الـتي تزامنـت مـع بـروز الخيوط الأولى لانبلاج الأزمة والتي تواصلت حلقاتها إلى وقعة صفين هي الـتي أنضـجت رسـائل التوثيـب ؛ ولـيس بمستبعد أن يكون الامتداد الزمني بين بدء الأزمة وتلك الوقعة هو الذي أعان على شيوع اسـتعمال هـذا النـوع مـن الرسائل بقصد الإثارة والتحريض على خوض الحرب؛ فهذا الوليد بـن عقبـة يخاطـب معاويـة في أكثـر مـن موثبـة للأخذ بثأر عثمان ﷺ ، فلنسمعه حيث يقول :

---

(٣٤) العقد الفريد : ٣٤٤/٤ .

(٣٥) ينظر : العمدة : ١٧٠/١ .

(٣٦) ينظر : الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام : ١٥ وما بعدها

مَعــاوِيَ إنَّ الشــامَ شــامُكَ فَاعتَصِــم بِشــامِكَ لا تُــدخِل عَلَيــكَ الأَفاعِيــا
وَحــامِ عَلَيهــا بِالقَنابِــلَ وَالقَنــا وَلا تَــكُ مَحشــوشَ الــذِّراعَينِ وانِيــا
وَإِنَّ عَلِيّــاً نــاظِرٌ مــا تُجيبُــهُ فَأَهــدِ لَــهُ حَرباً تُشيبُ النَّواصِيا(٣٧)

فرسالته تجعل الشام لمعاوية ، ولطالما رست سفينة الملك على ضفة معاوية فما عليه إلا الذود عنها لمنع الأفاعي من التسلل إليها . وينظر أحد أصحاب الإمام علي إلى جيش معاوية وقد احتاط بشريعة الفرات ليحول بينهم وبين وصولهم إلى الماء، فيكتب رقعة ويرمي بها في فسطاط الأشعث بن قيس ، وهو يومئذٍ أحد قادة جيش الإمام علي ﷺ ، فيها :

لــئنْ لم يُجَــلِّ الأشــعثُ اليــومَ كُربــةً مــن المــوتِ فيهــا للنفــوسِ تفلُّــتُ
فنشــربَ مــن مــاء الفــراتِ بســيفِهِ فهَبْنــا أُناســاً قبــلُ كــانوا فمَوَّتــوا(٣٨)

فحمي الأشعث فجلى الكربة بعد أن قرأ البيتين ، فقال الإمام علي كرم الله وجهه : (هذا اليوم نُصِرْنا بالحميّةِ)(٣٩). ويهتبل مروان بن الحكم الفرصةَ ليؤجج روح الانتقام في نفس معاوية ويعلى بن منية عاملهم على اليمن :

فــإنْ تقعــدا لا تطلبــا مــا ورثتُمــا فلــيس لنــا طــولَ الحيــاةِ مقــالُ
نعــيشُ بــدار الــذُّلِّ في كــلِّ بلــدةٍ وتظهــرُ منّــا كأبــةٌ وهُــزالُ(٤٠)

فهو يحضهما على إدراك الثأر وانتزاع ما ورثاه عن عثمان ﷺ من ملك . وقد ذيَّل معاوية رسالته إلى الوليد بن عقبة بأبيات يحضه فيها على إدراك ثأره :

اخــترتَ نومَــكَ إنْ هَبَّــتْ شــآميةٌ عنــدَ الهجــيرِ وشــرباً بالعشــيّاتِ
علــى طِلابِــكَ ثــأراً مــن بــني حكــمٍ هيهــاتَ مــن راقــدٍ طــلاّب ثــاراتِ(٤١)

فالوليد على رأي معاوية نزّاع إلى الراحة نؤوم في أوقات الهجيرة ، أما في العشيات فهو سكّير لا يجد لذته إلا في معاقرة الخمرة ، وتلك طباع لا تصنع رجالاً بآنافٍ تأبى الذّلة ، ولا تنشئ طلاّب ثارات، وهذا توبيخ يراد به التوثيب لا الهجاء كما يبدو أولَ وهلة .

ويندرج في عداد التوثيب طلب النصرة ، إذ يلجأ الشاعر إلى الاستنصار بمن يتجه إليه التوثيب ، بقصد ترجيح كفته على كفة خصمه ، ومن ذلك ما ذيَّل به معاوية رسالته إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، إذ قال فيها :

أَلاَ قُــلْ لعبــدِ اللهِ واخصُــصْ مُحَمّــداً وفارِسَــنَا المــأمونَ ســعدَ بــنَ مالــكِ
ثلاثــةُ رَهْــطٍ مــن صِــحابِ مُحَمّــدٍ نجــومٌ ومَــأْوىً للرجــالِ الصّــعَالكِ

(٣٧) شعراء أمويون : ٥٨/٣ .
(٣٨) مروج الذهب : ٣٧٦/٢ .
(٣٩) نفسه .
(٤٠) شرح نهج البلاغة : ٢٣٤/١٠ .
(٤١) مجموع شعر معاوية : ٢٣٥ .

أَلاَ تُخْبِرُونـــا والحـــوادثُ جَمّـــةٌ وما النـاسُ إلاّ بـين نـاجٍ وهَالـكِ

****

فـإنْ تنصـرونا تنصـروا أهـلَ حُرْمـةٍ وفي خُـذْلنا يـا قـومِ جَـبٌّ الحـوارِكِ(٤٢)

فمعاوية يستظل برايةٍ عمادُها قميص عثمان ، ولونها مضمّخ من نجيع دمه ، والانتصار لها انتصار لأهل حرمة وجب نصرهم ، وخذلانها جَبٌّ لسنام المجد .

٧. رسائل التهديد والوعيد :

وقد سجّل هذا النوع من الرسائل حضوراً متميزاً ، وهو يرتبط ـ كالهجاء ـ بظروف الحرب وما ينجم عنها من ثارات وأحقاد وتنافس ؛ والذي يجدر ذكره أن هذه الرسائل إنما جاءت وهي تحمل بين دفتيها ما يوحي بالتحدي وبالقدرة على الردع ، وتحدثت بطريقة تشي بالفوقية ، والنظرة إلى من هو خارج الذات ـ المرسل إليه ـ نظرة استصغار . فهذا أحد رجالات علي يكتب إلى معاوية يرعد فيها ويزبد ، يتهدد ويتوعد ، إذ يقول :

اثبتْ معاويَ قد أتاكَ الحافلُ تسعونَ ألفاً كلُّهم مقاتلُ

عمّا قليلٍ يضمحِلُّ الباطلُ(٤٣)

وعلى غرار هذا يعمد معاوية إلى كتابة رسالة إلى سعيد بن العاص يذيلها بأربعة أشطار من أرجوزة لامرئ القيس ، وقد اعتمدها معاوية على سبيل التمثل ، وهي تحمل تهديداً لأعدائه مثلما حملت أرجوزة امرئ القيس التهديد لقتلة أبيه ، إذ يقول :

تَاللهِ لا يَذهَبُ شَيخي باطِلا حَتّى أُبيرَ مالِكاً وَكاهِلا

القاتِلينَ المَلِكَ الحُلاحِلا خَيرَ مَعَدٍّ حَسَباً وَنائِلا(٤٤)

وتهدد معاوية أبا أيوب الأنصاري في رسالة قال فيها :

إنّي حَلَفْتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ لَقَدْ قَتَلْتُمْ إِمَاماً غيرَ ذي أَوَدِ

لا تَحْسَبُوا أَنّنِي أَنْسى مُصِيبتَهُ وفي البلادِ من الأنصارِ مِن أَحَدِ(٤٥)

فمعاوية لن ينسى مصيبته طالما كان يرى من قتلة عثمان رجالاً محسوبين على الأنصار .

---

(٤٢) نفسه : ٢٦٣ . والحوارك : جمع حارك وهو ركب البعير ، والجَبّ : قطع السنام .

(٤٣) مروج الذهب : ٣٧٥/٢ .

(٤٤) ينظر : رسائل العرب : ٣٠٣/١ . وديوان امرئ القيس : ١٣٤ ، والأرجوزة فيه بتسعة أشطار .

(٤٥) مجموع شعر معاوية : ٢٣٩ .

٨. رسائل متفرقة :

وثمة رسائل أخرى تقف إلى جانب الرسائل التي أسلفنا فيها القول ، وهي لا تمثل ظاهرة يعتد بها، ولكن بعضها يعد أساساً لموضوعات ظهرت فيما بعد تلك الحقبة ، وشقت طريقها مع موضوعات الرسائل السالفة الذكر ، بل فاقت الكثير منها من حيث الغزارة ؛ ومن ذلك رسائل النسيب التي سجلت حضوراً متميزاً في عصر بني أمية وما أعقبه من عصور ، أما في هذا العصر فلم يتيسر لنا الاطلاع على أكثر من رسالة واحدة تعالج موضوع النسيب وهي رسالة عدي بن نوفل إلى زوجه أم عبد الله بنت أبي البختري ، إذ كان قد استعمله عمر أو عثمان رضي الله عنهما على حضرموت ، فغاب مدة وكتب إليها أن تشخص إليه ، إذ قال:

إذَا مَـا أمُّ عبـدِ اللهِ لَـمْ تَحْلُـلْ بِوَادِيـهِ
ولم تُمْـسِ قَرِيبـاً هَـيَّج الحُـزْنُ دَوَاعِيـهِ
غـزال راعـه القنـاص تحميـه صياصـيه
عرفـت الربـع بالإكليـل عفتـه سـوافيه
بجـو نـاعم الحـوذان ملتـف روابيـه(٤٦)

ويبدو أن الخوض بمثل هذا الموضوع عن طريق الرسائل لم يكن معمولاً به على نطاق واسع ، ولعل انشغال طائفة من الشعراء أسوةً بمن جنّد نفسه في حركة الفتوح العظيمة هو الذي أنساهم أو شغلهم عن معالجة هذا الغرض عبر الرسائل ، فضلاً عن أنّ النسيب والتشبيب الذي هو فرع عليه لم يُتَح لهما أن يستقلاّ بوصف كل منهما غرضاً تفرّدَ بذاته ، ولم يشركه في النص غرض آخر ، والمقدمة التقليدية لم تعد لتنسجم ((مع الموضوع المهم الذي وجهوا إليه أشعارهم وهو موضوع الدعوة الإسلامية ، وما يريد الشاعر أن يقول مدحاً أو هجاءً أو فخراً))(٤٧).

وبلا أدنى شك في أنّ التوجه العام الذي كان متحكماً بحركة الحياة عند المسلمين إذ ذاك إنما هو توجه عَقدي ، يتطلع فيه المسلم إلى أن يكون منسجماً مع ما تقتضيه مبادئ العقيدة الجديدة ، لهذا وجدنا أن النزعة الذاتية أخذت تتلاشى وتنحسر لتحلَّ محلها نزعة جماعية جوهرها الإسلام ، وهذا هو الذي أدى إلى أن يخفت صوت النسيب بوصفه صوتاً ذاتياً خالصاً ، وينبغي ألاّ يغرب عن البال أن ثمة مواقف لقادة المسلمين كان دافعها الحرص على إقامة حدود الله تعالى بحق من خالف شرعته كانت وراء حذر الشعراء من الخوض في معالجة هذا الغرض عبر رسائلهم ، فلا عجب إذا ألفينا الشاعر يتردد كثيراً أو يتلبث طويلاً ، أو يحجم عن مباشرة غرض تماجنَ فيه صاحبه ، فاستحق أن يقول رسول الله ﷺ بحقه : (ذاك رجل مذكور في الدنيا منسيٌّ في الآخرة ، شريف في الدنيا ،

(٤٦) الأغاني : ٥٨/١٥ . اعتمد صاحب الأغاني رواية الزبير بن بكار في نسبة هذه الأبيات إلى عدي بن نوفل ، وأشار إلى أن أصل الرسالة إنما اقتصرت على البيتين الأول والثاني

(٤٧) الأمالي في الأدب الإسلامي : ٢٤١ .

خاملٌ في الآخرة ، يجيء يوم القيامة بيده لواء الشعراء ، يقودهم إلى النار)(٤٨)؛ وينبغي أن يتحرز من رأى رؤية العين أو سمع ـ بلا أدنى ريب ـ خبر تنفيذ حكم الموت بحق سحيم عبد بني الحسحاس ؛ لأنه نَسَب بإحداهنَّ نسيباً تعدى فيه حدود اللياقة ، وتجاوز مرامي العقيدة(٤٩)، فضبابية الفهم لموقف الإسلام من موضوع النسيب أسهمت في الإحجام عن اعتماده في الرسائل على نطاق واسع .

ومن الرسائل التي لم تسجل حضوراً متميزاً رسائل الفخر ، فثمة فخر فردي وآخر امتد أثره إلى الجماعة المسلمة ، ويبدو أن ضعف النزعة الفردية والارتقاء بها إلى الهم الجماعي أدى إلى ضمور هذا اللون من الرسائل ؛ فحين يقلق عقيل بن أبي طالب على راحة أخيه علي ﷺ يكتب إليه مستفسراً عن أحواله ، فيجيبه :

فإن تَسْأَلَنِّي كيفَ أَنت فإنّني جَلِيدٌ على عَضِّ الزَمان صَلِيبُ
عزيزٌ عليّ أنْ تُرَى بي كآبة فيَفْرَحَ وَاشٍ أَوْ يُسَاءَ حَبيبُ(٥٠)

فهو جَلد متماسك لا ينحني أمام هوج الرياح ، وهو صليب لا يقوى الدهر العضوض على أن ينال منه ؛ وبالطرف المقابل يقف معاوية بن أبي سفيان وهو يطاول أبا أيوب الأنصاري أحد رجالات الإمام علي فيتطاول عليه بفرسان ذي كلع ، وصناديد اليحصبيين ، ولم يلتفت إلى بني أمية بوصفهم رجاله الأقربين على ما عهده الجاهليون وألِفوه ، إنما كانت مادة فخره قد تجاوزت الأدنَينَ من بني جلدته إلى الأبعدين الذين توحد بينهم العقيدة والمصالح المشتركة ؛ فلنسمعه حيث يقول لأبي أيوب :

أَعْزِز عَلَيّ بِأَمْرٍ لَسْتَ نائِلَهُ وَاجْهَدْ علينا فلسنا بيضة البَلَدِ
قَدْ أبدلَ اللهُ منكم خَيْرَ ذي كَلَعٍ واليَحْصُبِيِّنَ أَهْلَ الحَقّ في الجَنَدِ
إنّ العراقَ لنا فَقْعٌ بقرْقَرَةٍ أو شَحْمَةٌ بَزّها شاوٍ ولم يَكَدِ
والشامُ مَنْزِلها الأبرارُ بَلْدَتُها أَمْنٌ وَحَوْمَتُها عِرّيسَةُ الأَسَدِ(٥١)

فهم ليسوا أذلاّء منفردين كالبيضة التي ((قام عنها الظليم وتركها لا خير فيها ولا منفعة))(٥٢)، ولقد أبدلهم الله من الذين اصطفوا إلى جانب خصمه بـ (أهل الحق في الجنَدِ) ، وأهل الحق ـ على زعمه ـ إنما هم أهل الشام ، ورجال تلك القبائل إنما هم من اليحاصبة وذي كلع ، أما العراقيون فهم ـ حسب تقديره ـ ليسوا سوى فقعٍ

(٤٨) المعجم الكبير : ٩٩/١٨ . الحديث الشريف قيل بحق امرئ القيس الكندي .

(٤٩) ينظر : طبقات فحول الشعراء : ١٨٧/١–١٨٨ .

(٥٠) العقد الفريد : ٣٥٦/٢ .

(٥١) مجموع شعر معاوية : ٢٣٩ .

(٥٢) لسان العرب : (بيض) .

بأرض سهلة ، والفقع أردأ الكمأة وأكثرها رخاوةً(٥٣)، وحاول ثانيةً أن يرسم صورة معبرةً عن حال وهنهم ، فشبههم بالشحمة التي ينتظمها شاوٍ بسفّودٍ وتُشوى على النار ، فتذوب والمتبقي منها لم يعد له نفع ولا ضر .

ومن الرسائل الشعرية النادرة من حيث الكم : الرسائل المنصفة التي أطلق عليها العرب تسمية (المنصفات) ، وهي القصائد التي أنصف فيها قائلوها أعداءهم ، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما وصفوه من حر اللقاء(٥٤)، وهذا يعني أن يضع الشاعر نفسه أو من ينوب عنه ، وخصمه ومن هم معه بكفتي ميزان ، وينظر إلى الكفتين بعين العدل والإنصاف من دون أن يرجح إحداهما على الأخرى إلا بما يقتضيه الحق والإنصاف ، وقد عرف العرب هذا اللون من الشعر في عصر ما قبل الإسلام ، وسار بعض فرسان المسلمين وشعرائهم على النهج ذاته ، أما السبب في ندرة الرسائل المنصفة في هذا العصر فمتأتٍّ من هيمنة نزعة التعصب لدى الشعراء ، إذ إن كلاً منهم كان ينظر إلى مفهوم الحق نظرة نسبية ، فيراه في الجانب الذي يحقق له مصلحته(٥٥)، و((إن الإنسان الذي يعترف بالحقيقة بالرغم من مخالفتها لمصلحته إنما هو إنسان شاذٌّ نادر ، وفي هذا مصداق لما ورد في القرآن الكريم : {وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}(٥٦)))(٥٧) ، والإنسان الشاذ من هذا الصنف كان قد أنجبته العروبة في إسلامها مثلما أنجبته في جاهليتها . ولعلّ في قول الوليد بن عقبة وهو يصف لمروان خصمه اللدود علياً ﷺ ما يُظهر طبيعة غرض الإنصاف ، إذ يقول :

فَإِنَّ عَلِيّاً لَهُ سَورَةٌ إذا ما تَتَبَّعَ داءً حَسَمْ
فَإِن قَالَ قَولاً لَهُ عِلَّةٌ فَقُل عِندَ أَوَّلِ حَرف نَعَمْ
وَإِن غَرَّكَ القَومُ عَن حُلمِهِ فَلا تَأمَنِ اللَّيثَ وَقتَ الأَجَمْ
وَإِن جَرَّؤوكَ عَلى حَربِهِ فَقُل في لِسانيَ عَنها بَكَمْ(٥٨)

وثمة نوع آخر من الرسائل الشعرية التي لم يسعفها تواضع حجمها كي تصطف إلى جنب الرسائل التي سجّلت حضوراً متميزاً في عصر صدر الإسلام ، ونعني بها رسائل (الاقتضاء) ، والاقتضاء : إنما هو طلب الحاجة ، وقد اشترط بعض النقاد أن يكون الاقتضاء لطيفاً وأن ينأى عن الخشونة ، ((فالاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان))(٥٩). وهذا النوع من الرسائل لم نألفه عند أهل الجاهلية ، ويبدو أن الحياء ، وسيطرة الخجل على

(٥٣) ينظر : نفسه : (فقع) .
(٥٤) ينظر : المنصفات : ١٣ فما بعدها .
(٥٥) ينظر : حوارات في الطبيعة البشرية : ٦٧–٦٨ .
(٥٦) سورة المؤمنون: من الآية٧٠ .
(٥٧) حوارات في الطبيعة البشرية : ٦٨ .
(٥٨) شعراء أمويون : ٥٧/٣ .
(٥٩) العمدة : ١٥٨/٢ .

طباع المرسِل هما اللذان كانا يُلجِمانِهِ عن طلب الحاجة مهما بلغت درجة نفعها ، ولعل تضافر نزعة الكبرياء مع فضيلة التعفف علاوةً على هيمنة عنصري الحياء والخجل على سلوك الشاعر هي سبب صمتِهِ ، وعدم البوح بما يشير إلى ضغوط الحاجة، وقد وصف القرآن أمثال هؤلاء ، حيث قال تعالى وقوله الحق : {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً}(٦٠)، وقد جسَّد هذه الحقيقة لبيد بن ربيعة العامري حينما مدحت ابنتُهُ الوليد بن عقبة ثم استطعمته بقولها :

فَعُـــد إنّ الكـــريمَ لـــه معـــادٌ وَظنّـــي لا أبـــا لـــك أَن تَعـــودا(٦١)

فقال أبوها ـ على رواية صاحب الأغاني ـ : ((أحسنتِ لولا أنّكِ استطعمتِهِ ، فقالت : إن الملوك لا يُستَحيى من مسألتِهم))(٦٢) ، وعلى رواية صاحب العمدة أنه قال : ((لقد أجدتِ لولا أنَكِ استعدتِ ، كراهيةً في قولها : فَعُد إنّ الكريمَ له معادٌ . ويروى : لولا أنكِ استزدتِ))(٦٣)، فلبيد يستعظم على ابنته أن تستطعم الوليد على الرغم من كونه ملكاً كما وصفته له ، ولعلنا لا نخطئ حين نحسب أن قصد لبيد في حواره مع ابنته إنما كان يريد لها أن تربأ بنفسها عن المساءلة ، فالتعفف والحياء أكرم على المرء من المسألة . والوليد إذ قلّت ذاتُ يده بعد عزله عن ولاية الكوفة يذهب إلى معاوية لمعالجة خَلَّته ، بيدَ أنه يعود من حيث أتى بعد أن يترك لمعاوية رسالة كلها ترفُّع وإباء ، إذ قال فيها :

أَعِـفُّ وَأَستَحيي كَمـا قَـد أَمَـرَتني فَـأَعطِ سِـوايَ مـا بَـدا لَـكَ وَانحَـلِ
سَـأَحدو رِكـابي عَنـكَ إِنَّ عَـزيمَتي إِذا نـابَني أَمـرٌ كَسَـلَّةِ مُنصَـلِ(٦٤)

فهو يؤْثِر غيره على نفسه ، ويظل ذا عزيمة ماضية كمضاء السيف القاطع ، مهما جارَ عليها الزمن ؛ فيُدرِكُ معاوية أنّ ضيقَ ذات اليد هي التي حَدَتْ بالوليد أن ينتظر رفده ولكن حياءه وعفافه مع كبرياءَ في نفسهِ منعتْـهُ من الانتظار ، فاكتفى بالإشارة الموحية عن طريق هذه الرسالة التي أدرك مضمونها معاوية ، فبعث له ما يسد به خَلَّته . وإذا كان الوليد قد لمّح إلى حاجته تلميحاً ، فإن ابنه أبا قطيفة عمراً كان جريئاً في اقتضائه ، إذ بعث لأبيه حين كان عاملاً لعثمان على الكوفة رسالة جريئة يطلب فيها جاريةً يقضي معها وطره ، إذ قال :

مـــن مبلـــغٌ عـــني الأمـــيرَ بـــأنّني أرقُّ بـــــلا داءٍ ســـــوى الإنعـــــاظِ

(٦٠) سورة البقرة: من الآية٢٧٣ .

(٦١) الأغاني : ٢٩٩/١٥ .

(٦٢) نفسه .

(٦٣) العمدة : ٨٢/١ .

(٦٤) شعراء أمويون : ٥٤/٣ .

إن لم تُغِثنِـــي خفـــتُ إثمَـــكَ أو أُرى في الـــدارِ محـــدوداً بـــزرقِ لحـــاظِ(٦٥)

ويبدو أن فرط محبة الوليد لابنه أبي قطيفة هو ما جرّأه على مطالبته بما يطفئ سعير شهوته الجنسية ، ويلوي عنق شبقه الذي عبّر عنه بـ (الإنعاظ) ، فما كان من الوليد إلا أن يبتاع له جارية بالكوفة ويبعثها إليه .

تلك هي أبرز أنواع الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام ، وهي تمثل بمجموعها إنجازاً شعرياً مبكراً من إنجازات هذا العصر من الرسائل الشعرية التي تعد الركيزة الأساسية التي شاد عليها من أعقبهم من شعراء العصور اللاحقة صرح رسائلهم الشعرية بمختلف الموضوعات التي طرقوها تعبيراً عن حركة الوجود بكل معطياتها .

الخصائص الفنية للرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام

اشتركت الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام بخصائص فنية أشهرها :

١. إنها رسائل اتصفت بالإيجاز والتكثيف ، فلا إطنابَ ولا فضولَ في الأقوال ، فكانت المقطعات خيرَ وعاءٍ سكنت فيه ، وأفضل وشاح اتشحت به تلك الرسائل على اختلاف أنواعها . ويبدو أن عنصر السرعة هو الذي فرض سطوته في اعتماد فن المقطعات للتعبير عن مضامين هذه الرسائل ؛ لأنّ المقطعات أقدر من القصائد على الإيفاء بمتطلبات عنصر السرعة ، فنظمها لا يقتضي من الشاعر زمناً ممتداً يتقاطع مع هدف الرسالة الذي يقتضي سرعة الاستجابة لتحقيق مراميه ؛ فقد وقفنا على خمس وثلاثين رسالة استقيناها عن طريق الدواوين الشعرية وكتب الأدب الموثقة ، أما المصادر التاريخية فقد أفدنا منها بقدر محدد اقتصر على الرسائل التي وثّقتْها مصادر ذات قيمة علمية عالية كالأغاني والعقد الفريد ونظائرهما ، فوقفنا من المظان التاريخية الأخرى موقفاً حذراً ، إذ لم نعتمدها إلا بالقدر الذي نطمئن فيه على سلامة طريق الرواية ، وهذه الرسائل ليست هي كل ما حازته المصادر المعتمدة في هذا البحث ، إنما تمثل المجموعة الأساسية التي انطلقت من خلالها الأحكام النقدية في هذه الدراسة ، وهذا لا يعني انعدام القصائد في رسائل عصر صدر الإسلام، فمن بين العدد الآنف الذكر قفز نصانِ فقط إلى مرتبة القصيدة القصيرة، إذ بلغ أحدهما أحد عشر بيتاً والثاني اثني عشر بيتاً. وما سواها فهو مقطعات أعلاها بتسعة، وأقصرها ببيت يتيم(٦٦).

٢. خلو مطالعها من التصريع : وهي خصيصة ترتبط بسابقتها ارتباطاً وثيقاً ، إذ إن نظم المقطعة غالباً ما يأتي عفو الخاطر ، وربما يفرضه ظرف آني طارئ ، والتصريع إنما هو الملاءمة بين العروض والضرب في الوزن والقافية ، ويكون إما بزيادة وإما بنقصان(٦٧)، وهذا يفضي إلى أن التصريع يتطلب جهداً

(٦٥) الأغاني : ٤٢/١ .

(٦٦) ينظر : الثبت من البحث ص٢٤–٢٥ .

(٦٧) ينظر : فن التقطيع الشعري : ٥٠ .

فنياً خاصاً لخلق تلك المواءمة الموسيقية في مطالع الرسائل ، وهو ما لا ينسجم مع متطلبات السرعة التي تكتفي باللمحة ، والإشارة السريعة ، أو الإيماءة الخفية ، وهو ما لم يتطلب فسحة زمنية ممتدة قد تفسد بامتدادها الهدف الأساس من الرسالة ، ولا سيما إذا وصلت في غير موعدها المحدد .

٣. اتصف أسلوب هذه الرسائل بالواقعية ، فحياة أصحابها وبيئتهم بكل معطياتها هي المادة التي كانوا يستمدون منها صورهم ، وهم في ذلك يشتركون مع غيرهم ممن لم يعنوا بالمراسلات في هذه الخصيصة ، فالشاعر المسلم ظل منشدّاً إلى الحياة التي ألِفها بحرّها وقرّها ، وخيرِها وشرِّها ، فاستعار منها أصباغ صوره ، وهذا لا يعني أنّ أولئك الشعراء لم يعتلوا صهوة الحياة الجديدة بمعطياتها العقدية ، فالحق أنهم لم يتنكروا لها ، بل غازلوها غزلَ المُحبّ المتيّم ، إذ اندافت حياتهم بتفاصيل مبادئها ، فدافعوا عنها ، وقدّم الكثير منهم حيَواتِهم ثمناً لديمومتها . ولا نعني بالواقعية هنا النقل الحرفي ، والتصوير الفوتوغرافي لمفردات الحياة حسب ، إنما نعني بذلك أيضاً النقل الأمين لما يجري في دهاليز النفس تعبيراً عن الحالة التي هي وليدة التفاعل والانفعال فالتعبير ؛ وهو ما يعبَّر عنه بالصدق الفني ؛ فالندى الذي يعانق وريقات النبتة ، أو يقبِّل وجه الأرض فيمنحها الحياة إنما هو هبة الله لمخلوقاته ، تتحول عند نهشل بن حري من كونها هبة إلهية إلى أن تغدو عطاءً إنسانياً يسيل من كفِّ كثير بن الصلت ، ليحيى أهله بالعراق كما أحيا غيث أهدته تهامة أرض نجد :

جَــزى اللهُ خَــيراً وَالجَــزاءُ بِكَفِّــهُ بَــني الصَــلتِ إِخــوانَ السَــماحَةِ وَالمَجــدِ

أَتــاني وَأَهلــي بِــالعِراقِ نَــداهُمُ كَما صابَ غَيثٌ مِن تِهامَةَ في نَجدِ(٦٨)

فمظاهر الواقعية تتجلى : بالكف ، وبني الصلت ، والعراق ، والغيث ، وتهامة ، ونجد ؛ إذ إنها جميعاً مسمّيات لموجودات واقعية .

وأولاد الحطيئة أفراخ لم يكسُ أجسامَهم ريشٌ مكتمل النمو ، فهي ما زالت بحواصل مزغبة أو حمر على رواية الديوان :

مــاذا تَقُــولُ لأَفْــراخٍ بِــذِي مَــرَخٍ حُمْــرِ الحَواصِــلِ لا مــاءٌ ولا شَــجَرُ

غَيَّبــتَ كاسِــبَهُمْ في قَعْــرِ مُظْلِمَــة فاغْفِرْ، عليكَ سَلامُ اللّهِ يا عُمَرُ(٦٩)

فالأفراخ ، وذي مرخ ، وحمر الحواصل ، والماء ، والشجر ، ثم التكنية عن السجن بـ (قعر مظلمة) ، والمغفرة التي هي حقيقة دينية ، وسلام الله وهو قيمة عقدية ، كلها من معطيات البيئة الطبيعية والقيمية التي أنتجها دين الله في هذا المجتمع .

(٦٨) عشرة شعراء مقلون : ١١٣ .

(٦٩) ديوانه : ١٠٧–١٠٨.

٤. العناية بالصنعة الفنية : إن الرسالة الشعرية في عصر صدر الإسلام كانت وعاءً أميناً لفكرة محددة ، قلما تجاوزتها إلى فكرة أخرى ، وإن حصل مثل هذا ، فلا يعدو أن يكون تجاوزاً شكلياً ، فهو في حقيقة أمره معنًى جزئيٌّ يصب في وعاء المعنى الرئيس ، كتشابك التوثيب والهجاء(٧٠) ، واللوم والتقريع ، وما يدور في فلك مثل هذه الموضوعات ، وحينما كانت الرسالة تُعنى بإيصال الفكرة إلى المتلقي بأيسر السبل ، وجدنا عدداً من أصحاب الرسائل يعمدون إلى انتهاج سبل الحقيقة، فيعرضون للأحداث والأفكار على نحوٍ تقريري ، فتأتي صورهم حقيقية ، وأفكارهم واضحة لا لبسَ فيها . فيزيد بن قيس يسرد قائمة بأسماء العمال الذين خانوا الأمانة في أموال الله فيحث الخليفة على مشاطرة هؤلاء بأموالهم :

فأرسِل إلى الحجّاجِ واعرف حسابَهُ وأرسِلْ إلى جَزءٍ وأرسِل إلى بشرِ
ولا تنسَيَنّ النافعَينِ كليهما ولا ابنَ غلاّبٍ في سراة بني نصرِ

* * * * *

فقاسِمْهُمُ ، أهلي فداؤكَ إنّهم سيرضَونَ إنْ قاسَمْتَهمْ منكَ بالشطرِ(٧١)

فهو يدوّن لعمر بن الخطاب ﷺ ثبتاً بأسماء عشرة ممن تولّوا شؤون المسلمين ، فلم يكونوا مؤتَمنين عليها ، ويحثه على مقاسمتهم أموالهم التي هي في شطر كبيرٍ منها إنما هي أموال المسلمين ، فالأبيات في هذا النص أقرب إلى النثر منها إلى الشعر ، ولولا قوله :

إذا التاجرُ الداريُّ جاءَ بفارةٍ من المسكِ لاحتْ في مفارقِهم تجري(٧٢)

لقلنا إنّ ما ورد في تلك الأبيات إنما هو كلام اعتيادي بعيد عن الشعرية ، ولربما استطاع النثر الفني أن يؤدي ما لم تستطع هذه الأبيات من أدائه ، أما ما ورد في قوله : (إذا التاجر ... الخ البيت) فهو قد استعار في هذا البيت الجريان للمسك ، على حين أنه في الاستعمال الحقيقي لا يصدق الجريان إلا على الماء وما يقوم مقامه ، والناظر في البعد المعنوي الخفي يلاحظ أن جريان المسك كان قد اقتصر على مفارق أولئك الذين ذكرهم في رسالته ، أما مفرق الشاعر ومَن هم على شاكلته فلم ينالوا منه نصيباً، فهناك حذف لكلام تختفي خلفه دلالة ما ألمعنا إليه . ولكن هذا لا يعني أن الرسائل الشعرية جُمَع تسلك ذات المنهج الذي ارتضاه يزيد لرسالته ، فهناك من أراد لرسالته أن تخلق هزة وجدانية وإحساساً عاطفياً لدى المتلقي على النحو الذي يحمله على الاستجابة لمرامي الرسالة ، وقد توسل

(٧٠) ينظر : مجموع شعر معاوية ، على سبيل المثال لا الحصر : ٢٣٩ قصيدة ١٦ .

(٧١) فتوح البلدان : ٣٧٧ .

(٧٢) نفسه .

الشعراء بالتشبيه تارةً ، والاستعارة تارة أخرى ، وبالكناية تارة ثالثة ؛ فأم عبد الله عند عدي بن نوفل غزال راعه القناص تحميه صياصيه(٧٣) ، ولبيد في عين الوليد بن عقبة كالسيف الصقيل ، وعطايا الوليد في مخيلة ابنة لبيد أمثال الهضاب ، وأسنمتها التي تلوح من بعيد كالركب من بني حام(٧٤) ، فهي لم تصرح بالسواد لوناً وهو ما توصف به كرائم الإبل إنما لَمَّحتْ إليه تلميحاً خفياً حين جعلتْ ذلك الركب حاميّاً ، لا ساميّاً ولا يافثيّاً، فسوادُ البشرة إنما هو لون أبناء حام ليس غير(٧٥) ، ولبيد كما هو الوليد أشمُّ الأنف وهو طويل الباع(٧٦) ، فالشمم وعلو الهمة والكرم ، جميعها ينظر إليه المتلقي من وراء غُلالة الكناية ، والصورة التي تثمِّرها الكناية فيها من البلاغة ما ليس في الأسلوب المباشر ، وربما لجأ بعض أصحاب الرسائل إلى استعمال الرمز في الإشارة إلى المعنى الذي لا يراد الكشف عنه لكل من هبَّ ودب إنما يقتصر فهمه على ذوي الحجا ، كما فعل رجل من الأنصار ، فكنى عن النساء بالقلائص ، وعرّض برجل يقال له (جعدة)(٧٧) ، والزمان عند الإمام علي كرم الله وجهه (يعضّ)(٧٨). وهكذا كانت الرسائل الشعرية تباشر المعاني إن استوجب الحال ذلك ، وإن اقتضى الحال التلبث أمام الصورة والغوص وراء المعاني عمدت إلى اتخاذ الصورة الفنية بمختلف ألوانها .

الموسيقى الشعرية في الرسائل

إذا نظرنا إلى الرسائل الشعرية من الزاوية التي تطلعنا على موسيقاها الخارجية وجدنا أن ما اعتمدناه عِينة للدراسة يضعنا أمام سبعة عشر رسالة انتظمها سلك البحر الطويل ، وهو بحر جادٌّ فيه من الرصانة ومن المساحة الصوتية ما يجعله صالحاً للتعبير عن الدلالات المعنوية التي فيها عمق وروية ، فهو يصلح لأن يستوعب الانفعالات الهادئة والعميقة ، ويقترب منه البحر البسيط الذي استحوذ على ثماني رسائل شعرية ، فهو بحر جادٌّ أيضاً يتسع لكثير من المعاني التي تتراكم في أعماق النفس ، وبموسيقاه الخارجية التي تجمع بين إيقاع الرجز (مستفعلن) ، وهو إيقاع تتعاور عليه زحافات كالخبن والطي ؛ وتفعيلة المتدارك (فاعلن) التي تأتي مخبونة (فعِلن) ومقطوعة (فعْلن) ، فتنتقل نغمته من سذاجتها ورتابتها إلى إيقاعها الراقص ، وبذلك يستطيع هذا البحر بإيقاعاته الراقصة ونغماته العالية المتموجة ارتفاعاً وانخفاضاً(٧٩) أن يعبر عن الانفعالات النفسية بمختلف

(٧٣) ينظر : الأغاني : ٥٩/١٥ .

(٧٤) ينظر : نفسه : ٢٩٩/١٥ .

(٧٥) ينظر : لسان العرب : (حوم) .

(٧٦) ينظر : الأغاني : ٢٩٩/١٥ .

(٧٧) ينظر : العمدة : ٣١٢/١-٣١٣ .

(٧٨) ينظر : العقد الفريد : ٣٥٦/٢ .

(٧٩) ينظر : العروض والقافية : ١٠٩ .

ألوانها . ويتخذ البحر الوافر مكانته الثالثة بين الأبحر التي صيغت بها الرسائل الشعرية في عصر صدر الإسلام ، وهو بحر يميل إلى التدفق السريع ، ويمتاز باستثارة المتلقي ، وهو يتقبل شحناته الخطابية ، وهو بحر يصلح لكل ما من شأنه أن يثير المتلقي ، ويهز وجدانه ، وقد انضم هذا البحر على خمس رسائل . ويُطلُّ الرجز بنصين ذُيِّلت بهما رسالتان على سبيل التمثل ، ومثله المتقارب الذي أفادت منه رسالتان أيضاً ؛ ثم الهزج الذي ترنم به عدي بن نوفل في نسيبه بأم عبد الله ، وهو بحر ينسجم وطبيعة الغزل ، فإيقاعه سريع يلائم طبيعة الانفعال الذي يتأتى عن طريق النسيب .

أما القوافي المعتمدة في الرسائل الشعرية فجميعها مطلقة ما عدا قافية واحدة جاءت مقيدة ، والقافية المقيدة تمنح الشاعر حرية أكبر مما تمنحه القافية المطلقة لتحررها من قيود الإعراب ، ومع ذلك تظل القافية المطلقة بامتداداتها الصوتية أقدر على تسريب الألم والانقباض النفسي ، والجدير بالذكر أنّ الرسالة التي جاءت في هذه الدراسة بقافية مقيدة كانت قد اعتمدت إيقاعات البحر المتقارب ، والمتقارب على ما يراه بعض الباحثين ((يصلح للعنف أكثر منه للرفق))(٨٠) ، وهو بحر يتميز بالتدفق والرتابة المتأتية من إيقاع مكرر سلس(٨١)، لذلك يتحاشاه الشعراء ؛ خوفاً من الوقوع في مصيدة السلاسة والرتابة . وتتضافر الموسيقى الداخلية مع الموسيقى الخارجية ، فينشأ عنها ما يُسهم في إضاءة الدلالة المعنوية ، فقول الوليد بن عقبة :

حَلَلْتَ المَدينَةَ رَخْوَ الخِناقِ وَقَد كانَتِ النَّفسُ عِندَ الحَقَمْ

يَقولُ عَلَيٌّ بِرَخْوِ الخِناقِ وَمَن ذا يُناظِرُهُ إِن عَزَمْ(٨٢)

فالبحر الذي انطلق منه هذان البيتان إنما هو المتقارب المحذوف الضرب ، وقد ورد البيت الأول مقبوضاً (فعولُ) في وحدتين من وحداته الموسيقية هما الثانية والرابعة (العروض) ، فتحولتا من (فعولن) إلى (فعولُ) مع علة الحذف التي أصابت الضرب الذي استحال من (فعولن) إلى (فعو) . أما البيت الثاني فقد تعاقب عليه زحاف القبض في ثلاثة مواضع من وحداته الموسيقية ، إذ طال الوحدةَ الأولى فتحولت من (فعولن) إلى (فعولُ) ، ومثلها الوحدة الرابعة (العروض) من الشطر الأول ؛ والثانية من الشطر الثاني مع حذف ضربه . وإذا ما علمنا أن الزحاف إنما هو تغيير يتناول ثواني الأسباب ، بحذف الساكن أو إسكان المتحرك أو حذفه(٨٣) ، فالزحاف إنما هو نقص ، وعلة الحذف التي لحقت ضربهما إنما هي علة نقص أيضاً ، وعلى ذلك يكون البيت الأول قد خسر صوتين

(٨٠) فن التقطيع الشعري والقافية : ١٨٥ .

(٨١) ينظر : العروض والقافية : ٩١ .

(٨٢) ينظر : شعراء أمويون : ٥٦/٣ .

(٨٣) الإيقاع في الشعر العربي : ٥٨ .

ساكنين من حشوه وعروضه ، وسبباً خفيفاً أي صوتين متحرك فساكن من ضربه ، ومعنى ذلك أن هذا البيت قد استغنى عن ثلاثة سواكن ومتحرك واحد من مجموع ستة عشر صوتاً ساكناً ، وأربعة وعشرين صوتاً متحركاً ، ومعنى ذلك أن البيت كان قد استغنى عن أربعة أصوات من مجموع أربعين صوتاً ، ويزيد النقص في البيت الثاني عما سبقه بصوت ساكن واحد ، فيصل النقص إلى خمسة من مجموع أربعين صوتاً ، والنقص على ما هو معروف اختزال لما حقه أن يُنطَق ، وهذا يفضي إلى اختزال الزمن الذي يحتاجه القارئ لإنجاز قراءة البيت على وفق هذا التشكيل ، وهو ما يتناغم مع ضربات القلب ، فحركة التنفس التي تترك بصماتها على حركة الإيقاع فتأتي سريعة متساوقة مع شدة الانفعال وعنفوان التوتر الذي عبّر عنه الشاعر في البيتين السابقين ، فضلاً عن أن لهذه الزحافات والعلة التي لحقت بالضرب وظيفةً لا تقل أهميةً عن خَلْق حالة من التوازن بين الأصوات وما تعبر عنه ، وهي التلوين الموسيقي الذي من شأنه أن يعصف بالرتابة التي قد تفضي بالمتلقي إلى السآمة والملل . والناظر في أصوات الحروف التي يتألف منها مسار البيتين يلاحظ أن الشاعر كان قد كرر قوله: (رخوَ الخناقِ) ، وهي كناية عن الخور والضعف ، وتكرر فيها صوت الخاء مرتين في كل بيت ، فضلاً عن تكرار حرف القاف ثلاث مرات في البيت الأول ومرتين في البيت الثاني ، والمعروف أن النطق بهذه الأصوات يحتاج فيها المرء إلى بذل جهد عضلي حين النطق بها ، فإذا وجدنا أكثر من صوت حلقي أو حنكي واحد ((في بيت أو شطر منه استطعنا أن نحكم على ثقله في النطق ، ثم نفور الأذن منه ، ويتبع هذا رداءة الموسيقى اللفظية))(٨٤).

ويبدو أن ثمة انسجاماً بين طبيعة الأصوات التي تشكل منها البيتان ، وحالة النفس المنفعلة بالحدث إلى حد التوتر ، فتكرار الحاء في (حللت ، والحقم) ، والخاء في (رخو ، والخناق) والقاف في (الخناق ، وقد ، والحقم ، ويقول ـ في البيت الثاني ـ) ، جميعها تلاءمت مع حالة الغضب والتوتر النفسي الحاد ، والإحساس بالضيق والتذمر ، فالألفاظ بأصواتها المجهدة عبّرت خيرَ تعبير عن معانٍ اتسمت بالشدة والعنف والغلظة . ويؤدي الجناس وظيفة صوتية تترك آثارَها في الدلالة المعنوية ، إذ لا تعتم عن تجليتها ولا سيما إذا أُحسن استعمالُها ، فقول ابنة لبيد مثلاً :

فَعُـــد إنّ الكـــريمَ لـــه معـــادٌ وَظنّـــي لا أبـــا لـــك أَن تَعـــودا(٨٥)

فيه مجانسة صوتية متأتية عن طريق الاشتقاق (عد ، معاد ، تعود) ، وإذا شئنا القول إن لفظة (تعودا) التي وردت في العجز إنما هي صدى للفظة (فعد) و(معاد) التي هي صدر البيت ، وهو ما يعرف عند البلاغيين برد الأعجاز على الصدور ، وثمة علاقة معنوية بين الدلالات الثلاث ، فإيرادها على هذه الشاكلة إنما هو توكيد

(٨٤) موسيقى الشعر : ٣٥ .

(٨٥) الأغاني : ٢٩٩/١٥ .

للمعنى الذي تنضم على هذه الألفاظ . وتدخل المطابقة التي نعني بها المعاني المتضادة ميدان الرسائل الشعرية فيجلي بعضها بعضاً ، فالضد يجلّي حسنَهُ الضدُّ ، فقول كعب : (فخالفتَ أسبابَ الهدى وتبعتَهُ) تضاد بين (خالفت) و(تبعت) ، فكأنه أراد أن يقلب المعادلة من خلال هذه المخالفة ـ إن جاز التعبير ـ والتضاد في قول الإمام علي كرم الله وجهه في قوله :

عزيزٌ عليّ أنْ تُرَى بي كآبة فيَفْرَحَ وَاشٍ أَوْ يُسَاءَ حَبيبُ(٨٦)

فثمة مقابلة ضدية بين (يفرح ، واشٍ ، وساء ، وحبيب) ، فكآبته تستثير عاطفتين متضادتين هما : الفرح ، والحزن ، المتأتي من الإساءة ، والفرح إنما هو صفة الواشي ، أما مردود الإساءة فإلى الحبيب، وهي مقابلة تعزز المعنى الذي أورده في البيت الأول حينما قال:

فإن تَسْأَلَنِّي كيفَ أَنت فإنّني جَلِيدٌ على عَضِّ الزَمان صَلِيبُ(٨٧)

ثبت بالرسائل الشعرية الداخلة ضمن الدراسة

صاحب الرسالة	عدد أبيات الرسالة	البحر	الغرض	المصدر
ابنة لبيد العامري	٥	الوافر	المديح	الأغاني : ٢٩٩/١٥
بجير بن زهير	٤	الطويل	لوم وتقريع	شرح ديوان كعب : ٤
الحطيئة	٤	البسيط	المديح	ديوانه : ٢٠٨
رجل من الأنصار	٤	الوافر	الشكوى	العمدة : ٣١٢/١
عبد الله بن عباس	٣	الطويل	تمثّل للاعتبار	الأغاني : ٢٥/٢١والأبيات لأمية بن الأسكر
عدي بن نوفل	٧	الهزج	الغزل	الأغاني : ٥٨/١٥–٥٩
علقمة بن معبد	٢	الوافر	الهجاء	الأغاني : ٤٦٨/٢٣
علي بن أبي طالب	٢	الطويل	الفخر	العقد الفريد : ٣٥٦/٢
عمرو بن الوليد / أبو قطيفة	٢	الكامل	الاقتضاء	الأغاني : ٤٢/١
كعب بن زهير	٤	الطويل	لوم وتقريع	شرح ديوان كعب : ٣

(٨٦) العقد الفريد : ٣٥٦/٢ .

(٨٧) نفسه .

المتمنية	٤	البسيط	الاعتذار	خزانة الأدب : ١٠٩/٢
مروان بن الحكم	٥	الطويل	التوثيب	شرح نهج البلاغة : ٢٣٤/١٠
معاوية بن أبي سفيان	٢	الطويل	التمثل للاعتبار	الأغاني : ٢٧/٢١ والبيتان لطارق الخزاعي
معاوية بن أبي سفيان	٤	مشطور الرجز	التمثل	رسائل العرب: ٣٠٣/١ والأبيات لامرئ القيس
النجاشي	٥	البسيط	الهجاء	العقد الفريد : ٣٤٤/٤
نصر بن حجاج	٨	الطويل	الاعتذار	خزانة الأدب : ١٠٩/٢
نهشل بن حري	٣	الطويل	المديح	عشرة شعراء مقلون : ١١٣
يزيد بن قيس	١٢	الطويل	الشكوى	فتوح البلدان : ٣٧٧

ولمعاوية بن أبي سفيان اثنتا عشرة رسالة ذيّلها بالشعر ، وهي تعبر عن موضوعاتٍ شتى قالها الشاعر في عصر صدر الإسلام ، وقد رتبناها على حسب تسلسل ورودها في الديوان ، ثم أشرنا إلى عدد أبيات كلٍّ منها وإلى بحورها ، واعتمدنا الترتيبَ نفسَه مع رسائل الوليد بن عقبة :

صاحب الرسالة	تسلسل ورود النصوص في الديوان	عدد أبيات الرسالة	البحر
معاوية بن أبي سفيان	١	١١	الوافر
	١٠	٢	البسيط
	١٦	٩	البسيط
	٢٢	٣	الطويل
	٢٦	٤	الطويل
	٢٩	٧	البسيط
	٣٦	٥	الطويل
	٤٧	٨	الطويل
	٥٢	٩	الطويل
	٥٥	١	البسيط
	٦٦	٢	الرجز
	٨٠	٥	البسيط
الوليد بن عقبة	٢٣	٤	الوافر

	٢٤	٣	الطويل
	٢٨	٩	المتقارب
	٣٠	٩	الطويل
	٣٢	٤	الطويل

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الأغاني ، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) ، تحقيق : لجنة من الأدباء ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١ .
- الأمالي في الأدب الإسلامي ، د. ابتسام مرهون الصفار ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٩١ .
- الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة ، مصطفى جمال الدين ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط٢ ، ١٩٧٤ .
- حوارات في الطبيعة البشرية ، د. علي الوردي ، بغداد ، (د . ت) .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ) ، مصورة عن طبعة بولاق ، ١٢٩٩هـ .
- ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٨٤.
- ديوان الحطيئة ، رواية وشرح : ابن السكيت (ت٢٤٦هـ) ، دراسة وتبويب : د. مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ط٣ ، ٢٠٠٣ .
- ديوان سلاّمة بن جندل ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، نشر وتوزيع : المكتبة العربية ، حلب، ط١ ، ١٩٦٨ .
- ديوان عدي بن زيد العبادي ، جمع وتحقيق : محمد جبار المعيبد ، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد ، ١٩٦٥ .
- ذيل الأمالي والنوادر ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت٣٥٦هـ) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ .
- السنن الكبرى ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت).
- شرح ديوان كعب بن زهير ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت٢٧٥هـ) ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
- شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب المصرية ، (د.ت) .
- شعراء أمويون ، دراسة وتحقيق : د. نوري حمودي القيسي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٨٢ .
- الشعر والشعراء ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، مصر ، ط٣ ، ١٩٧٧ .

- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلاّم الجمحي (ت٢٣١هـ) ، قرأه وشرحه : أبو فهر محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ .
- العروض والقافية ، د. عبد الرضا علي ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩ .
- عشرة شعراء مقلون ، صنعة الأستاذ الدكتور : حاتم صالح الضامن ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، ١٩٩٠ .
- العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق : أحمد أمين وزميليه ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ، ١٩٦٥ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، ١٩٧٢ .
- فتوح البلدان ، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ) ، راجعه وعلق على حواشيه : رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- فن التقطيع الشعري والقافية ، د. صفاء خلوصي ، دار الشؤون الثقافية ، بيروت ، ١٩٧٤ .
- لسان العرب المحيط ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الإفريقي (ت٧١١هـ) ، تصنيف : يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، (د.ت) .
- مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة – بيروت ، د.ت .
- مجموع شعر معاوية ، جمع وتحقيق : أ. صالح زامل حسين ، منشور في مجلة الأحمدية ، من ص٢١٣–٣٠٠ ، دبي ، العدد ١٧ ، يونيو ، ٢٠٠٤
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦هـ) ، تدقيق : يوسف أسعد داغر ، دار الأندلس ، ط٦ ، ١٩٨٤ .
- المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت٣٦٠هـ) ، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، ط٢ ، (د.ت) .
- المنصفات في الشعر العربي حتى نهاية العصر الراشدي ، محمد فتاح عبيد ، أطروحة دكتوراه على الآلة الكاتبة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٨٨ .
- الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام ، محمد فتاح عبيد ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، على الآلة الكاتبة ، ١٩٨١ .
- موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٧٨ .